التحضير و التخطيط العسكري في المعارك الحربية عند الموحدين ضد النصارى الأندلس "معركة الأرك أنموذجا".

Military preparation and planning in the war battles of the Almohads against the Christians of Andalusia, "the battle of the Ark is a model".

بن خيرة أحمد *

مخبر التاريخ الاقتصادي والاجتماعي جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي – الجزائر

benkheiraahmed1@gmail.com

غانية البشير

مخبر التاريخ الاقتصادي والاجتماعي جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي– الجزائر

ghania_bachir80@yahoo.fr

تاريخ الارسال: 2020/12/23 تاريخ القبول : 2020/12/25 تاريخ النشر: 2020/12/31

ملخص: أرتأينا أن نخوض في موضوع الاستراتيجية الحربية عند الموحدين عهد الأمير المنصور الموحدي لاسيما في مواجهاته مع المسيحيين في اطار الحروب الصليبية بالأندلس، ووقفنا في هذا المقال عند أسباب معركة الأرك ،والموقف عند الجبهتين الاسلامية و الصليبية و الزعامات عند المعسكرين، وحشد القوى من حيث الاستعداد و التنظيم ، و الخطط المنتهجة في المعركتين ،وتحليل المعركتين و أخيرا سير المعركة ةو نتائجها.

الكلمات المفتاحية: الأرك ؛ الأندلس؛ الفونسو الثامن ؛ يعقوب المنصور الموحدي؛ الحروب الصليبة ؛ قشتالة.

Abstract: We decided to go into the issue of the war strategy of the Almohads in the era of Prince Al-Mansour, the Almohad, especially in his confrontations with the Christians in the framework of the Crusades in Andalusia, and we considered in this article the causes of the battle of

* المؤلف المراسل

the Ark, the position at the Islamic and Crusader fronts and the leaderships of the two camps, and the mobilization of forces in terms of preparation and The organization, the plans pursued in the two battles, the analysis of the two battles, and finally the course of the battle and its results***key words:*** The monotheists; Castile; Andalus; The crusaders; Yaqoub al-Mansur al-Mawahid, Alfonso VIII

المقدمة

حفل التاريخ الاسلامي العام بأحداث بارزة كتبت بأحرف مشعة في سجل التاريخ المجيد للأمة ،ولعل ما صنعه أمراء الدولة الموحدية يشكل احدى الحلقات المضيئة من خلال الملحمات التي سجلها جيشها من انتصارات ضد القوى الصليبية بالأندلس ، فقد برهنت بمواجهاتها مع القوى الصليبية عن الأهمية التاريخية و السياسية و العسكرية لهذا الكيان الاسلامي ،حيث تجلى ذلك الدور في سعي الموحدون و لاسيما في عهد خليفتهم يعقوب المنصور في مواجهته مع القشتاليين ومن معها من الإمارات المسيحية بالأندلس الطامحة الى القضاء على الاسلام بالأندلس ، ويبدو جليا ذلك الدور الكبير في منازلاتهم العديدة ولعل أبرزها معركة الأرك التي جسدت بطولات الأمراء الموحدين وبسالتهم في الذود عن ديار المسلمين و مقدساتهم ،ومن هذا المنطلق من هي القيادة التي تبوءت تلك الحظوة وماهي الأساليب التي اعتمدتها في مواجهة الجيش النصراني في قشتالة و أراغون و غيرها من الإمارات المسيحية ؟

ظروف معركة الأرك

أولا الموقف على الجبهة الموحدية:

بعدما تولى الخليفة يعقوب المنصور مهام الخلافة هدأت الحرب في الأندلس لعدة أعوام نتيجة مرض أبي يوسف المنصور في مراكش لأنه كان يرغب في تولي أمر الجهاد بنفسه لولا الخلاف الذي وقع بين ملوك الإسبان في تلك الفترة[1] ثم انشغاله بثورات المغاربة في افريقية [2]، وعندما توجه المنصور لإخماد إحدى تلك الثورات في المغرب الأوسط ،بعدها قام ملك البرتغال سانشو الأول باحتلال مدينة شلب المسلمة –تعرف

الآن باسم سلفش (Silves)- بمساعدة القوات الصليبية[3] ،وكان ذلك في عام 1191 م ،مما دفع بالمنصور إلى العبور إلى الأندلس استجابة لاهلها فاسترد مدينتي شلب و قصر أبي دانس من مملكة البرتغال ،و أثناء وجود قوات الموحدين خشي الفونسو من أن تتوجه قوات الموحدين صوبه فأسرع للخليفة الموحدي يعرض عليه معاهدة صلح [4]،وهكذا سلكت مملكة قشتالة مع الدولة الموحدية سياسة ذات شقين الأول طلب الود و الصلح مع الموحدين ، و الثاني القيام بعدة غزوات فقامت منذ 585هـ/1189م بثلاث غزوات متوالية ،فكانت الأولى و الثانية بقيادة مطران طليطلة [5]،و قادة جمعية فرسان قلعة رياح ، أما الغزوة الثالثة فكانت بقيادة الفونسو نفسه ، و استولى النصارى خلال هذه الغزوات الثلاث على بعص الحصون ، وقتلوا الرجال و سبوا النساء و الاولاد ، فعم الفزع و الخوف جراء ذلك [6] ، وتذكر المصادر لما انقضت مدة الهدنة أرسل ألفونسو جيشا كثيفا إلى بلاد المسلمين بلغوا الجزيرة الخضراء فنهبوا وعاثوا فسادا في أراضيهم وكانت هذه الحملة استفزازية وتخويفية أتبعها ألفونسو بخطاب للسلطان يعقوب المنصور يهدده ، و يتوعد ، و يطلب منه التنازل عن بعض الحصون الأندلسية المتاخمة يدعوه فيه إلى مواجهته وقتاله فلما قرأ السلطان المنصور الخطاب ، استفز المنصور،و كتب على ظهر رقعة منه (ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها و لنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون)، الجواب (ما ترى لا ما تسمع)، والمنصور عزم على تأديب الفونسو في تماديه على المسلمين .[7]

ثانيا الموقف على الجبهة النصرانية :

حرص الفونسو الثامن طوال مدة الهدنة على ايقاف الحرب بالأندلس ، وعدم اثارة المسلمين ضده ليتفرغ إلى فض النزاع بين ملوك النصارى في تلك الأونة وبتعيين عين الفونسو الثامن مارتن دي سيرجا مطرانا لطليطلة خلفا للمطران جونزالو راح المطران الجديد يثير حربا صليبية ضد المسلمين ، وشكلوا حملة كبيرة ضد مسلمي الأندلس و هاجمت البلاد إلى أقصى الجنوب تخرب و تدمر و تسيء النساء والأطفال[8]

ولم يقنع بذلك بل حرض الفونسو الثامن ملك قشتالة على القيام بخرق الهدنة و الإعداد لحملة صليبية كبرى فانصاع له و كتب إلى الخليفة المنصور كتابا يدعوه فيها إلى القتال و يتحداه بأسلوب يفيض غرورا و غطرسة ، فلما وصل هذا الكتاب إلى المنصور اشتد غضبه و استعد للحرب و أمر بإذاعة الخطاب على عامة المسلمين ،وعندئذ مزق المنصور الكتاب و كتب على ظهر قطعة منه

ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ }النمل37

مجاوبا بقوله: الجواب ما ترى لا ما تسمع ثم ذكر هذا البيت

ولا كتب إلا المشرفية[9] عنده ولا رسل إلا الخميس[10] العرمرم[11]

الزعامات في المعسكرين

أولا في معسكر الموحدين:

- الخليفة يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن : قائد المعركة و خليفة المسلمين ، يتحلى بالصبر و الشجاعة الفائقة ، قوي العقيدة ، راسخ الإيمان ، كان حريصا على استشارة قواده بعكس أبيه يوسف بن عبد المؤمن الذي كان من أكبر أخطائه انفراده برأيه و عدم استشارة الناصحين فهلك عند أسوار شنترين و فشل في أكثر من معركة[12].

- أبو عبد الله بن صناديد : من أعظم قواد الأندلس و أكثرهم خبرة بمكايد العدو في الحروب ، وقد ساهم في وضع خطة المعركة برأي وجيه ،فضله المنصور عمل به لأنه أعرف الناس بطرق النصارى ومكائدهم[13].

- أبو يحي بن أبي حفص : كبير وزراء الخليفة المنصور ، وقد امتاز بسداد الرأي و الفطنة و الشجاعة في كثير من الحروب ، وقد ولاه المنصور القيادة العامة لجيش الموحدين في هذه المعركة[14].

ثانيا في معسكر المسيحيين :

- الفونسو الثامن : ملك قشتالة اعتلى العرش و هو في سن الثالثة عندما توفي شانجه الثالث سنة1158 م و لما بلغ الفونسو الثامن سن الحادية عشر بويع بالملك ، و هو قائد جيش النصارى في معركة الأرك ، يعده المؤرخون من أبطال حركة الاسترداد الكبرى لمالك الأندلس بعد الفونسو السادس ، وقد مني بهزيمة ساحقة في هذه المعركة [15].

- مارتن دي بسيرجا [16] مطران طليطلة كان وراء اشتعال تلك الحرب بما بثه في نفس الفونسو الثامن و إثارة النصارى ضد المسلمين ،و كان يقوم بدور معنوي بين صفوف الجيش النصراني لحثه على الثبات و مواصلة القتال ضد الموحدين ، كان يخطط لشن حرب صليبية كبيرة ضد المسلمين في الأندلس ، و قد جسد حقده على المسلمين عندما كان يدمر كل ما يمر عليه بالنار و السيف ، حتى لا تقم للمسلمين قائمة بعد ذلك[17].

أهداف الطرفين من الاقتتال

أولا أهداف الموحدين: .

كان المسلمون يهدفون إلى الدفاع عن الأراضي الإسلامية و الذود عن أهلها اللآمنين ضد عبث القشتاليين و اعتداءاتهم المتكررة [18]، ثم لتأديب الفونسو الثامن الذي نقض الهدنة المبرمة بينه و بين المسلمين فلم يراع عهدا و لم يصن ذمة ، وصارا أكثر إعراضا ، فتطاول على المسلمين و على خليفتهم ومن ثم لا بد من كسر شوكته[19].

ثانيا أهداف المسيحيون:

كان النصارى يرمون إلى إنزال الهزيمة بالجيش الموحدي ، وضياع هيبته و السيطرة على شبه الجزيرة الأندلسية بحملة صليبية كبرى على غرار الحملات التي يواجهها صلاح الدين

الأيوبي بالمشرق الإسلامي ، هادفين من ذلك إضعاف المسلمين في الأندلس حتى يتمكنوا من استردادها بلدا بلدا [20].

الاستعداد الطرفين للمعركة

لم تذكر الروايات العربية عدد قوات المسلمين المشتركة في هذه المعركة ، بينما أفاضت القول في ذكر أعداد قوات النصارى فابن أبي زرع ذكر عددهم بثلاثة مائة ألف فارس و راجل ويبدو أن فيها من المبالغة الشيء الكثير ،أما رواية الضبي[21] أوردت بان الجيش القشتالي ضم 25000فارس، و300000 راجل وكان مع الجيش جماعات من التجار اليهود لشراء أسرى المسلمين و أسلابهم و الرأي الثاني اقرب إلى صواب بالنظر إلى خسائر القشتاليين في المعركة التي قدرها صاحب نفح الطيب 146000قتيل ، و30000أسير [22] ،وفي رواية ابن الأثير 146000قتيل و 13000أسير [23] ،وقد استطاع الفونسو من هذه الأعداد الهائلة من مملكته الصغيرة ، وما قدم إليه من فرسان قلعة رياح ،و فرسان الداوية ، كما طلب العون من ملكي ليون و نافار و دعاهم إلى تناسي الخصومات ،فوعداه بالعون و السير إليه،و قد يكون الدافع من ذلك تحريض الكنيسة على المسلمين ليس إلا[24].

كما تشير معظم الروايات أن عد قوات النصارى أكبر بكثير قوات المسلمين و تحديدا بستمائة ألف مقاتل و هذا الرقم مبالغ فيه فذكر شوقي ابو خليل انه كان يساوي عدد جيش النصارى و لا أدل من ذلك أن جيوش المسلمين تتألف من جنود المغرب والأندلس فقط بينما كانت جيوش النصارى تتكون من حشود هائلة جاء ت من ممالك غرب أوربا مما اكسبها الصبغة الصليبية هذا وان كانت جيوش النصارى تتفوق على المسلمين في العدد إلا أن روح الجهاد العالية التي تحلى بها المسلمون كانت عوضا عن ذلك النقص ، فليس العبرة في الكم و إنما في إعداد المقاتل و قوة إيمانه[25]، وهذه النقطة تجعل معركة الأرك تتوافق إلى حد بعيد مع معركة حطين.

حشد القوى من الطرفين

أولا : حشد الموحدين

لما دوت صيحة الجهاد في جميع أنحاء المغرب من مدينة سلا غربا حتى برقة شرقا وهرع الرجال والشباب من مكان للانضمام إلى ألوية الجهاد في الأندلس ، وعند مدينة القصر الصغير بدأ الخليفة يعقوب المنصور ينظم جيوشه ويوفر لها تموينها[26].

وفي 20رجب 591هـ اجتاز الخليفة البحر بجيوشه إلى الجزيرة الخضراء بالأندلس بالترتيب التالي قبائل العرب ثم قبائل زناتة ثم المصامدة ثم غمارة ثم المطوعة ثم الموحدين ثم العبيد وأخيرا عبر الخليفة في حشد أشياخ الموحدين و الزعماء و الفقهاء و لم يسترح في المدينة غير يوم واحد ،متعجلا السير بالجيوش الزاحفة إلى قشتالة ، رغبة في استغلال حماسة الجند قبل أن تتراخى عزائمهم وبعد ذلك استأنف جيش الموحدين سيره إلى اشبيلية[27] و هناك مكث الخليفة عدة أيام يستكمل أهبته ، أجرى تمييزا لجيشه ، فأستعرض الجند صفاصفا ، قبيلا قبيلا ، ثم أخرجت الرواتب و البركات ووزعت على سائر الحشود[28].

ثم بادر الخليفة بالسير نحو قشتالة و عندما بلغته الاخبار بأن ملك قشتالة قد حشد قواته شمال قلعة رباح على مقربة من قلعة الأرك معتزما أن يلقي المسلمين بها والا يسمح لهم بعبور الحدود إلى داخل اراضيه وجه المنصور جيشه إلى هذا المكان ، وقريبا من جيش النصارى ضرب معسكره في يوم الخميس الثالث من شعبان 591هـ/1195م ، ثم عقد مجلسا من القادة و الاشياخ لبحث الخطة التي يجب اتباعها في خوض المعركة[29] .

ثانيا الحشد المسيحيين:

رأى الفونسو الثامن ملك قشتالةان يتأهب للقاء الجيش الإسلامي منذ أن سمع بعبوره إلى الجزيرة الخضراء ، ثم طلب العون من ملوك النصارى(ليون و نافار) ويبدو أن

ملك ليون قد فترة من الزمن ،و انتظر أياما في طليطلة حتى وافته حشود النصارى و عندما أكمل استعداداته غادرها مسرعا مخترقا نهر وادي يانة متجها نحو اراضي قلعة رياح حتى وصل إلى حصن الارك ، في هذا المكان عسكر الفونسو الثامن بجيشه المتألف من جميع الاجناد و الفرسان و المشاة بالاضافة إلى فرسان قلعة رياح و فرسان الداوية ، فتوفر له أكثر من مائة الف مقاتل حسبما يقول اشباخ[30] ، وهو عازما على لقاء المسلمين فيه بالنظر للرسالة التي هدد فيها المنصور

خطة المعركة

أولا خطة الموحدين:

فلما صار المنصور على مسافة يومين من الفونسو عقد مجلسا للشورى من كبار القواد و أصحاب الرأي هذا ما ميز خطة المسلمين بالروح الاستشارية الذي كان بمثابة مجلس استشاري حربي على مستوى عال من قادة الأندلس و المغاربة و كبار الوزراء ، و استمع المنصور إلى آراء الجميع ، وبعد مشاورات استقر الرأي على تنفيذ رأي كبير قواد الأندلس أبي عبد الله بن صناديد لما له من خبرة كبيرة بمعرفة أساليب العدو و مكائده و وسائل خداعه و كانت خطة المسلمين فأشار عليه بتوحيد القيادة و خطة القتال[31] .

صار الوزير القائد أبو يحي بن أبي حفص قائدا عاما للمعركة ،وان تنطوي تحت رايته جميع الفرق من المغاربة والأندلسيين ،وأن يعهد في قيادة العسكر الأندلسية إلى عساكرهم ، لأنهم لا يحسنون الحرب ،ولا يتحمسون لها إذا أقيم عليهم قواد غرباء و على ذلك أسندت قيادة فرق الأندلس قائد أندلسي معروف بشجاعته فأختبر عيد الله بن صناديد لقيادة هذا الجناح على أن يخضع بدوره للقائد الأعلى أبي يحي بن أبي حفص في كل أوامره [32] وتقوم القوة الرئيسية(النظاميون) المكلفة بلقاء العدو المتكونة من جند الأندلس والمغاربة النظاميين وعلى هذه القوة مواجهة الهجمة الأولى لجيش العدو[33]، أما بقية الجيش و هي القوة المؤلفة من قبائل البربر ومعظمهم من غير النظاميين ، وجمهرة المتطوعين فتكون قوات احتياطية تقوم بالعون والإمداد يدفع بها إلى المعركة عندما يتحرج

موقف المسلمين ، وفيما يخص الخليفة و معه قوات حرسه فيرابط وراء التلال منتظرا الفرصة لينقض فجأة إذا ما ظهر الأعيان فيرجح كفة النصر للمسلمين[34].

وكان أعظم ما في هذه الخطة ذلك التمويه العجيب الذي أشار به ابن صناديد حيث رأى أن يرابط الوزير أبو يحي بن أبي حفص في قلب الجيش بدلا من الخليفة ،وان يرفع فوق قبته الأعلام الخليفية ،بينما رابط الخليفة بقوات الحرس الخليفي وراء التلال ، حتى لا يكون هدفا للقشتاليين ينالون منه [35].

ثانيا خطة النصارى :

رأى الفونسو الثامن أن يترك أساليب القتال القديمة في الحرب و رسم خطته بطريقة اشتملت على حلين حسبما تمليه طبيعة الموقف

الأول : تجنب الاشتباك مع المسلمين في معركة حاسمة و إبعادهم عن التحصن بالقلاع ليرغمهم عن الانسحاب لنفاذ المؤن و تفشي الأمراض أو لحلول الشتاء

الثاني: أن يقوم فرسانه بتوجيه الضربة الأولى لقلب الجيش الموحدي الذي يقوده الخليفة —كما يظنون —معتمدين في ذلك تسليحهم الثقيل الذي لم تألفه فرسان الموحدين من جهة و هبوطهم السريع من أعلى ربوة الأرك كالسيل الجارف من جهة أخرى .

– ادخر الفونسو بعض القوى ليدفع بها إلى ساحة القتال كلما تفوق عليهم الموحدون في القتال

تحليل الخطتين

مما لاشك فيه أن خطتي الطرفين كانتا دقيقتين و منتظمتين للغاية فكل منهما أحكم خطته لينتصر على الآخر ، بالنسبة لألفونسو الثامن فقد وفق في نقل المعركة إلى بلاد المسلمين وتوسيع دوائر الصراع على حسابهم ، ونجح في اختيار مكان محلته حيث رابط بها على هضاب قلعة الأرك ليتسنى له احتلال موقع استراتيجي [36] ، فإذا كانت الدائرة عليه توزعت جنوده ووجدت لها مسالك نحو بلاده و قلاعا يعتصمون بها كقلعة رباح المجاورة لهم ،هذا من جهة و من جهة أخرى يضمن استمرار تموين جنوده بالمؤن

اللازمة له، لذا كان مقدوره أن يتحمل حربا طويلة الأمد ، هذا في الوقت الذي لا تستطيع فيه جيوش الموحدين الاستمرار في حربا طويلة خوفا من نفاذ المؤن .

أما خطة الموحدين فقد تميزت أيضا بالدقة و الإحكام فقد كانت خطة جماعية التي استندت إلى الشورى تعاونت فيها مختلف الفرق و القيادات بصفوة روح الفريق الواحد ، فالأندلسيون تسند قيادتهم إلى قائد منهم فكانوا أكثر استجابة و طواعية للأوامر، ومن مزايا خطة الموحدين بالإضافة إلى القيادة الجماعية ذلك التمويه الذي صدم كل آمال القشتاليين ، فقد ركزوا هجومهم على القلب ظانين أن الذي يقوده هو الخليفة بينما اقتضت الخطة تغيير مكان الخليفة و رفع الأعلام الخليفية على القلب لتضليل العدو فضاع أمل القشتاليين في التركيز على القلب و أن جاء هجومهم عنيفا و قاسيا[37].

سير و تطور القتال في معركة الأرك

كان القشتاليون يشرفون من مواقعهم العالية على وصول قطعات الجيش الإسلامي إلى ميدان المعركة تحت أعلامها الخضراء – وهو لون الموحدين – وقد بثو من حولها العيون لتنقل إليهم أنباءها، وظهر نشاط طلائع المسلمين و فعاليتها في جمع معلومات دقيقة عن العدو و في إيهامها لأكثر من سرية استطلاع تابعة للقشتاليين[38] .

ثم عبئت الجيوش تعبئة حرب وعقدت الرايات لسائر القبائل و الطوائف و شقت حملة النبال طريقها تحت أعلامها الخضراء إلى مقدمة الجيوش لتفتح القتال مع العدو ثم أمر الخليفة يعقوب المنصور جيوشه بالزحف نحو محلة النصارى إلى أن اقتربت من محلاتهم[39] ، وخرجت بعض قطع الجيش القشتالي لملاقاة الموحدين ولكن لم يحدث اشتباك بينهما ، لان المنصور لم فضل خوض المعارك في اليوم الموالي ، فلما رأى النصارى جمود الموحدين خشوا من رسم الكمين أو استطرادهم فعادوا إلى محلتهم فوق ربوة الأرك و قد أثقلتهم أسلحتهم الحديدية[40]

أولا المرحلة الافتتاحية:

في ضحى اليوم التالي التاسع من شعبان سنة591هـ/1194م أمر الخليفة الموحدي جيوشه بالزحف و اندفعت جنوده تحاول اقتحام سفح التل الذي يحتله ملك قشتالة ، و إذا بفرسان الأعداء تهبط كالليل الدامس و البحر الزاخر أسرابا، وأمواجا تعقب أمواجا و قد هبط في الدفعة الأولى ما بين سبعة ألاف ،و ثمانية ألاف فارس كلهم قد احتجب بالحديد ،و البيضات و الزرد ،و اندفعت هذه القوة حتى لطمت خيلها أطراف رماح المسلمين ثم تقهقرت قليلا و عادت للاقتراب من جيوش الموحدين و تهيأت للهجوم الفعلي[41].

ثانيا مرحلة القتال المتلاحم:

ركز القشتاليون هجومهم على القلب التي يقودها القائد العام أبو يحي بن أبي حفص ظانين أنها القوة التي يقودها الخليفة ،فقاتل أبو يحي و جنوده أشد قتال و لكن الصدمة كانت عنيفة والهجمة كانت قاسية فقتل أبو يحي و معه جماعة من رجاله ، و اعتقد النصارى أن النصر قد لاح لهم بعد أن حطموا قلب جيش الموحدين عندئذ تقدمت قبائل العرب و المطوعة و الأغزار [42]و الرماة و أحاطوا بالنصارى من كل جانب ثم دفع القائد ابن صناديد قائد الميمنة بجيوش الأندلس إلى المعركة و زحفت معه قبائل زناتة و سائر قبائل لبربر

واندفعت الجيوش الإسلامية بجملتها نحو قلب جيش القشتاليين واشتد القتال بين الفريقين و وكثر قتلى القشتاليين في مقدمة جيشهم بقيادة ملك قشتالة نفسه التي اضطلعت بالهجمة الأولى حتى اضطرت إلى التقهقر و الفرار نحو الربوة التي تحتلها محلتهم ، وأسفرت الجولة الأولى عن تحطيم قلب الجيش الموحدي و تمزيق مقدمة جيش النصارى[43].

ويقدم لنا صاحب الروض وصفا تفصيليا لدوران المعركة بعد القشتاليين في الجولة الأولى ، فقد كان الفونسو معتصما مع باقي قواته بربوة و يستمدون العون من ملكهم لكي ينظموا أنفسهم و يعاودوا الهجوم ثانية على المسلمين ، دار الموحدون في

السهل و حاصروا تلك القوة و حالوا بينها و بين الصعود إلى الربوة ثم ارتدوا ثانية نحو السهل ، فحملت عليهم سائر قوات المسلمين بسيوفهم و رماحهم[44] .

ثالثا مرحلة الحسم

دارت معركة حاسمة ابدى فيها الموحدون ضروبا شتى من الشجاعة و الإقدام ، وبدا على القشتاليين التعب و الإرهاق رجح ميزانها زحف المنصور في قواته الاحتياطية تحت لوائه الأبيض ليجهز على البقية الباقية أو يضطرها للفرار [45]، وكانت ملحمة مروعة التحم فيها الفريقان تحت سحب كثيفة من الغبار ، وأرجاء المكان تدوي بوقع سنابك الخيل التي نفرى القتلى ،و قرع الطبول ،و أصوات الأبواق ،و صليل السلاح،و صياح الجند أنين الجرحى و انفرجت الشدة و لاحت تباشير النصر أمام المسلمين و تساقطت فرسان النصارى[46] أمام ضربات الموحدين مهزومة[47] ،ونفذ المنصور بقواته إلى قلب الجيش القشتالي الذي يقوده الفونسو الثامن بنفسه يحيط به عشرة آلاف فارس – وهي البقية الباقية من القشتاليين –تساقطوا جميعا صرعى إزاء هجمات الموحدين ، ولم يشأ الفونسو بالرغم من اشتداد ضغط المسلمين ،و مواجهته لخطر الهلاك و السحق المحقق أن ينقذ نفسه من بالفرار ، ويتحمل عار الهزيمة ، ولكن عندما رأى رجاله استحالة الوقوف أمام ضغط المسلمين تضرعوا إلى ملكهم أن يحتفظ بحياته حيث أن الله قد تخلى عنه ، فرفض أن يستجيب لهم فجذبوه رغم انفه، وارتدوا نحو طليطلة و قلوبهم تفطر اس و حزنا لما لحق بهم الهزيمة ، تأييد الله بالنصر لجنود المسلمين[48].

رابعا مرحلة المطاردة و استثمار النصر:

اثر انتهاء المعركة، قام الموحدون بمطاردة لفلول الجيش القشتالي المنهزم التي اعتصمت بحصن الأرك ، فحاصر المسلمون هذا الحصن حيث اعتقد المنصور أن الفونسو الثامن قد التجأ إليه ثم اكتشف انه لاذ بالفرار إلى طليطلة فأقتحم المسلمون الحصن أسروا منه 24000أسير نصراني حسب رواية الناصري، وقد اختلفت الروايات الإسلامية في مصير هؤلاء الأسرى فيروي صاحب نفح الطيب أن المنصور فدى بهم 5000 أسير مسلم

بينما يروي ألف صاحب الروض القرطاس بان المنصور من عليهم جميعا بالإفراج ، و أطلق سراحهم ،وان هذا التصرف قد اغضب قادة الموحدين بل ندم عليه الخليفة المنصور نفسه [49].

استولى الخليفة يعقوب المنصور بعد انتهاء القتال على بعض القلاع القريبة من ميدان المعركة ، ثم هاجم الموحدون قلعة رباح ذاتها و اقتحموها بعد قتال عنيف و انتزعوها من أيدي فرسان جمعية قلعة رباح المتولين للدفاع عنها ، وهكذا استرد المنصور هذه القلعة المنيعة [50].

ولم يكتف المنصور بمطاردة القشتاليين في أراضي قلعة رباح و استيلائه على بعض حصونها بل انه واصل سيره إلى الأراضي القشتالية و اخترقها شمالا حتى وصل إلى طليطلة فحاصرها و ضربها بالمجانيق و الفونسو معتصم بها مكسور الجناح لهبوط معنوياته ، ولكن المنصور لم يفلح في اقتحام أسوار المدينة فعاد منسحبا إلى الجنوب بعد أن اكتفى هدنة مع القشتاليين ، وربما كان دافعه وراء ذلك خشية نفاذ التموين أو تفشي الأمراض في جيوشه ولا سيما انهم مقبلون على فصل الشتاء ،وبعد أن انتهى المنصور في توزيع الغنائم على الجنود و أودع نصيب الدولة في بيت المال سار بجيشه المظفر إلى اشبيلية و أقبلت عليه الوفود مهنئة بالنصر[51].

نتائج معركة الأرك

أولا على الصعيد السياسي :

تعتبر معركة الأرك من المعارك الإسلامية الفاصلة التي خاضتها دول الإسلام في المغرب والأندلس ضد حركة الاسترداد الكبرى التي اضطلع بها ملوك النصارى في غرب أوربا ، فقد استطاعت هذه المعركة أن تكبح نشاط النصارى إلى حين و قضت على قوة قشتالة و جعلتها بحاجة إلى عدة سنوات لتنهض من كبوتها ،وتوقف زحف الصليبيين على ارض المسلمين ثماني عشر سنة بعدها استأنف الفونسو الثامن مع ملوك النصارى لاسترداد البلاد، و أنزلت الهزيمة بالموحدين في موقعة العقاب 609هـ/ 1212 فمحت

كل أثر لنصر الأرك العظيم ،لأن الموحدين لم يحاولوا استثمار النصر العسكري ولم يربطوه باستراتيجية سياسية فكان بإمكان الموحدين تغيير الخارطة السياسية للأندلس لان ظروف الممالك النصرانية عقب هزيمتهم في موقعة الأرك كانت مهيئة حيث انعدم التنسيق بين تلك الممالك النصرانية ،وأصبحت كل منها تخطب ود الموحدين بمفاوضات سرية بعدما استشرى النزاع بينها[52] ،كما ضيع المنصور الفرصة حينما فك الحصار على طليطلة معقل الداء وعاد إلى المغرب هذا هو الخطأ الفادح الذي وقع فيه المنصور ، حيث منحهم فرصة استعادة الأنفاس وتنظيم صفوف جيوشهم و من ثم الأخذ بالثار في موقعة العقاب ، وقد روى عن الفونسو الثامن عقب هزيمة الأرك انه حلق رأسه ولحيته ونكس صليبه أقسم ألا ينام على فراش ولا يقرب نساء ولايركب فرسا ولا دابة حتى يأخذ بالثأر[53] .

ثانيا على الصعيد العسكري:

أبرزت معركة الأرك مجموعة من النتائج

-تميزت القيادة العامة بروحها الاستشارية الجماعية فأكسبت القائد العام قوة التأثير في رجاله ، وقد انعكس ذلك في ظهر الروح المعنوية العالية بين الجنود ، وسادتهم روح الفريق مما كان له أكبر الأثر في رفع الكفاءة القتالية للمسلمين و إحراز النصر ..

-أظهرت تلك المعركة مدى ما يتمتع به الخليفة المنصور دماثة الخلق و التحلي بآداب الحرب الإسلامية و حسن المعاملة مع الأعداء ، فانه لم يبدي قسوة لا مبرر لها في معاملة الأسرى ، فقد اسر المسلمون عشرين الفا بل اثر ان يمنحهم الحرية دون افتداء ،وقد ساء وقع هذا الجود لدى الموحدين ، واعتبروه خطأ[54].

- قام المنصور 592هـ/1196م بغزوة جديدة في قلب الأراضي النصرانية و اخترق ولاية استرامادورة و عبر النهر الكبير في اتجاه نهر التاجة ، وبعد ان فتح عدة حصون و قلاع حاصر أبو يوسف المنصور طليطلة عاصمة قشتالة عشرة أيام لكنه لم ينجح من اختراقها فعاد منسحبا ووقع هدنة مع الفونسو في نفس العام[55].

– أبانت المعركة عن أهمية المواجهة والتمويه على مسرح العمليات حيث اقتضت خطة الموحدين نقل الخليفة إلى الاحتياطي ورفع أعلامه الخليفية على القلب الذي يقوده أبو يحي ابن أبي حفص فركز القشتاليون على القلب قاصدين قتل الخليفة فضاع جهدهم هباء ، ثم لعبت المفاجئة دورها الحاسم عندما زج بقوته الاحتياطية إلى أتون المعركة و بددت شمل من بقي من القشتاليين [56].

خاتمة

تعتبر معركة الأرك إحدى معارك دولة الموحدين الذين بذلوا جهودا فادحة في سبيل الاضطلاع بحركة الجهاد في غرب أوربا و صد عدوان النصارى عن الأندلس الإسلامية طوال عصر الخلفاء العظام من حكامها الذين ما فتئت جهودهم متظافرة في تدعيم الكيان العسكري لدولتهم الإسلامية حكومة و شعبا ، مسخرين في سبيل ذلك كل مواردهم الاقتصادية و البشرية في تعبئة حربية دائمة .

ومما لا ريب فيه أن هاته المعركة تعتبر من المعارك الإسلام الهامة التي خاضها قوى الإسلام في المغرب من مغاربة و أندلسيين ..دفاعا عن الإسلام و ذودا عن ميادينه ووقوفا ضد الحملات الصليبية و حركة الاسترداد التي اضطلع بها ملوك النصارى في ارض الأندلس ،فغنم الإسلام حياة جديدة امتدت إلى حين و هيأت الأندلس لتكون ولاية مغربية تابعة للموحدين فكان نصر حين و الأرك تدعيما لقوى المسلمين و تحطيما لسيل النصارى الجارف و سدا له .

الهوامش

(1) للمزيد حول الخلاف الذي وقع بين ملوك الأسبان في تلك الفترة ؛ انظر :محمد عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس،مكتبة الخانجي ،ط**4** ..،القاهرة،**1417** م/**1997** هـ،عصر الموحدين ،ج5 ،ص ص40 –45 .

(2) حيث قام بنو غانية و هم فلول من المرابطين بميورقة و نزلوا في بجاية و استولوا على الجزء الشرقي من بلاد المغرب و تحالفوا مع قراقوش الغزي و بعض القبائل العربية بافريقية ، توجه أبو يوسف على رأس حملة كبرى لمحاربتهم و بعد هزيمة مبدئية للموحدين ، الحق أبو يوسف بالثائرين هزيمة كبرى اكتوبر 1187، إلا أن هذه الهزيمة لم تقض على بني غانية و ظلوا شوكة تقض مضاجع دولة الموحدين زهاء نصف قرن ؛ للمزيد انظر : ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص287 ؛ محمد عبد الله عنان ، نفسه ،ج.5، ص165؛ هشام أبو رميلة ،علاقة الموحدين بالممالك النصرانية و الدول الإسلامية في الأندلس ، دار الفرقان ، ط.1،عمان،1404هـ/ 1984م ،ص143.

(3) في صيف 1189 رسا في لشبونة أسطول صليبي كان يضم محاربين من فلاندرز ،و انجلترا أبرموا اتفاقا مع ملك البرتغال شانجة الأول لمهاجمة مدينة شلب في 20رجب 585هـ/3سبتمبر 1189م، ونزح سكانها عنها ، وتوجه معظمهم إلى اشبيلية ،و استغاثوا بالمنصور ، الذي استنفر الناس للجهاد ؛ انظر فتحي زغروت ،الجيوش الإسلامية و حركة التغيير في دولتي المرابطين و الموحدين ، دار التوزيع و النشر الإسلامية ،الطبعة الأولى ،القاهرة ، 2005،ص324 ؛ الصلابي ، صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الأفريقي دولة الموحدين،دار الكتب و الوثائق القومية ، ط **1** .،القاهرة،**1996** ، ص 51.

(4) فاستجاب المنصور فعقد مع سفراء الملك القشتالي معاهدة صلح مدتها خمس سنوات 586هـ/1190م،وانتهز الفونسو فرصة عبور المنصور عائدا للمغرب ،و راح يغزو الأندلس ناقضا بذلك المعاهدة؛ عنان ، نفسه ،ج.51، ص65.

(5) حرص الملك ألفونسو على عدم إثارة المسلمين ضده حتى لا يغريهم بالسير إلى غزوه ولكن بعد وفاة المطران (جونزالو) وتعيين "مارتن دي بسيرجا" مطرانا لطليطلة ، شرع الأخير في زرع الحقد والبغض وتأجيج صدور النصارى الأسبان ضد المسلمين وعمل على إعداد حملة كبيرة في الأندلس ، انظر: يوسف أشياخ ،المرجع السابق ،ج.2،ص81؛الصلابي ، نفسه، ص176.

(6) ابن خلكان، المصدر السابق ،ج.7 ،ص4؛هشام أبو رميلة ، المرجع السابق ،ص258.

(7) ابن الأثير ، المصدر السابق ،ج.12 ،ص ص48،47؛ هشام أبو رميلة ، نفسه ،ص261.

(8) يوسف أشياخ ، تاريخ المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان ،ط**2** .،مؤسسسة الخانجي ، القاهرة ، **1377**هـ **1958** /م.،ج.2، ص81.

(9) المشرفية :المشرفي هو سيف يجلب من بلاد المشارف ،و ينسب إليها ، انظر مصطفى إبراهيم ،وآخرون ، المعجم الوسيط ، المكتبة الإسلامية,دط، إستانبول، .**1960**الخطيب مصطفى،ج.1،ص480 .

(10) الخميس : هو الجيش الجرار ؛ سمي لذلك لأنه يتكون من خمس فرق : المقدمة و القلب ، والميمنة ،و الميسرة ،و الساق ؛انظر: نفسه ، ج.1،ص256.

(11) ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني الجزري الملقب بعز الدين)،الكامل في التاريخ، تحقيق يوسف الدقاق ،دار الكتب العلمية ،ط**1** .،بيروت ،**1987** ج.12، ص ص48،47، ابن أبي زرع ، المصدر السابق ، ص430، ابن أبي دينار محمد بن ابي القاسم الرعيني،،المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، الطبعة الثالثة،دار المسيرة ،دط، بيروت ،**1993** ص ص116،115؛ ابن خلكان ،المصدر السابق،ج.7، ص6؛مجهول ،الحلل الموشية ،تحقيق سهيل زهير و عبد القادر زمامة ،دار الرشاد الحديثة،ط1 ، الدار البيضاء، **1979**،ص43.

(12) ابن خلكان أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد) ت **681 هـ1282** / ،وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس ،دار صادر ،دط، بيروت،**1970**.، ج7، ص4.

(13) فتحي زغروت ،المرجع السابق،ص325 ، الصلابي ، المرجع السابق ، ص174.

(14) فتحي زغروت ،نفسه ،ص 326؛ شوقي أبو خليل ، **22**الأرك بقيادة يعقوب المنصور الموحدي ،دار الفكر بيروت ، دار الفكر دمشق ،ط،1979، ص55.

(15) فتحي زغروت ، نفسه ،ص326؛ بطرس البستاني ، معارك العرب في الأندلس ، دار مارون عباد ،دط،بيروت، 1987 ،ص86.

(16) شرع مارتن دي بسيرجا في زرع الحقد والبغض وتأجيج صدور النصارى الأسبان ضد المسلمين وعمل على إعداد حملة كبيرة في الأندلس مع التنسيق مع القوة السياسية والعسكرية والنصرانية الحاكمة وبالفعل تم للنصارى ما خططوه وقاد ذلك المطران الحاقد حملة دمرت كل شيء في طريقها بالنار والسيف ، وشرعت تلك الحملة الحاقدة في تدمير مدن وقرى المسلمين القريبة منهم ، وقطعت أشجار الزيتون ، وسيقت الماشية ، وسُبي المسلمون العُزل رجالا ونساء ، وقتل قسمٌ كبير منهم، وزحفت قوى من فرسان النصارى إلى أقصى جنوب الأندلس ؛ انظر يوسف أشباخ ، المرجع السابق ، ج.2،ص81.

(17) شوقي أبو خليل، المرجع السابق ،ص49 .

(18) أشباخ ، نفسه ،ج.2 ،ص81؛ شوقي أبو خليل ،نفسه ، ص50.

(19) صالح زهر الدين ، موسوعة معارك العرب ، دار الندوة الجديدة ، الطبعة الأولى،بيروت،**2000** ، ص51.

(20) فتحي زغروت،المرجع السابق ،ص 327.

(21) الضبي ، احمد بن يحي بن احمد (599هـ-1203م)، بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس ،تحقيق إبراهيم الابياري،دار الكتاب المصري و دار الكتاب اللبناني ، القاهرة و بيروت ، 1989/1410،، ج.3 ، ص35.

(22) المقري ، المصدر السابق ، ج.1 ،ص 443.

(23) ابن الأثير ، المصدر السابق ج.10 ، ص237.

(24) شوقي أبو خليل، المرجع السابق ،صص 56-57.

(25) فتحي زغروت ، المرجع السابق ، ص327؛ شوقي أبو خليل، نفسه ،ص 58.

(26) شوقي أبو خليل، المرجع السابق ،ص52.

(27) يشير المؤرخ الألماني أشباخ إلى عامل ثان كان يدفع المنصور إلى تعجل السير نحو خصمه ،وهو خشيته من نفاذ المؤن قبل أن يوجه الضربة الساحقة إلى عدوه ؛ انظر :يوسف أشباخ ، المرجع السابق،ج.2 ،ص333.

(28) فتحي زغروت ، المرجع السابق ، ص326.

(29) شوقي أبو خليل، نفسه ،ص53.

(30) يوسف أشباخ ، نفسه ،صص334،333؛ هشام أبو رميلة ، المرجع السابق ، ص260.

(31) صالح زهر الدين، المرجع السابق ، ص90.

(32) فتحي زغروت ، المرجع السابق ، ص329.

(33) نفسه ، ص330؛ الصلابي ، المرجع السابق ، ص175.

(34) شوقي أبو خليل، المرجع السابق ،ص 56.

(35) للمزيد عن الخطط المسلمين انظر؛ عنان ،المرجع السابق، ج.5 ،ص202 .

(36) صالح الأشتر ، معركة الأرك ،دار الشرق العربي ،بيروت،1988، ص64.

(37) فتحي زغروت ، المرجع السابق ، صص331،330؛ صالح الأشتر ، نفسه ،ص58.

(38) ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار المغرب والأندلس،تح، ج.س كولان وليفي بروفنسال،دار الثقافة ،ط . **3**،بيروت،**1983** ، ج.3 ، ص219؛هشام أبو رميلة ،المرجع السابق ،ص147.

(39) ابن عذارى ، المصدر السابق ، صص219،220؛ شوقي أبو خليل، المرجع السابق ،ص58؛ صالح الأشتر، المرجع السابق، ص60 .

(40) ابن أبي زرع، المصدر السابق ،صص148،147؛ فتحي زغروت، المرجع السابق ،ص332 ؛ انظر محمد عنان ، المرجع السابق ،ج.5، صص203،202.

(41) الناصري،المصدر السابق، ج.2 ،صص170،169؛ ابن عذارى ، المصدر السابق ، صص195،194 ؛ عنان ، نفسه ،ج.5،ص205؛شوقي أبو خليل، نفسه ،ص59.

(42) الأغزار : هم جنس من الترك ، ويبدو ان الجيش الموحدي كان يضم أجناسا أخرى الذين بعث بهم صلاح الدين الأيوبي لقتال أبي يعقوب المنصور الموحدي وعندما فشلت تلك الحملة توزعوا في المغرب العربي ؛ انظر المراكشي ، المعجب ،ص160؛ فتحي زغروت ، نفسه ،ص333.

(43) شوقي أبو خليل، المرجع السابق ،ص60.

(44) ابن أبي زرع ،المصدر السابق ،صص148،147.

(45) و يذكر عبد الله عنان ،أن ملك قشتالة نفسه قاد الهجوم على ميسرة الجيش الموحدي فتقهقر المطوعة و أخلاط السوقة ، فلما رأى الخليفة المنصور ذلك تقدم بنفسه دون ساقته و أخذ يحث جنده على الثبات و الهجوم و استمر القتال طوال النهار فحلت الهزيمة بالنصارى و قتل أكثرهم بينما تمكن ملك قشتالة من الفرار في عشرين فارسا من رجاله حينما خيم الظلام فسار إلى طليطلة و التجأ بقية جيشه إلى حصن الأرك ؛ عنان ، المرجع السابق ،ج.5،صص209،208.

(46) تذكر رواية نصرانية إن الاضطراب والفوضى حلت بمعسكر النصارى حين تقدم نحوهم المسلمون في صباح يوم المعركة ، فاندفع النصارى بلا نظام نحو المسلمين و اشتبكوا معهم في موقعة استمرت ناشبة حتى منتصف النهار فبدت الهزيمة على النصارى ، فحين شاهد ذلك ملك قشتالة و هو في معسكره بسفح التل ، اندفع ببقية جنده إلى ميدان المعركة يضرب يمينا و شمالا ، ولكن اكثر جنده سقط قتيلا في ميدان المعركة ، ثم ادرك بعض قادة النصارى استحالة استمرار القتال و التغلب على المسلمين فناشدوا ملكهم بالانسحاب و الفرار خوفا على حياته و لكنه رفض مما جعلهم يخرجوه بالقوة من ميدان المعركة و عادوا به إلى طليطلة ،؛ يوسف أشباخ ، المرجع السابق ،ج.2،صص336-337.

(47) هشام أبو رميلة ؛ المرجع السابق ، ص 263؛ شوقي أبو خليل ، المرجع السابق ، ص61 ؛ فتحي زغروت ، المرجع السابق ، ص334.

(48) المقري ، المصدر السابق ،ج.1 ،ص443 ؛ فتحي زغروت ، المرجع السابق ، ص335.

(49) المقري ،نفسه، ج.1 ، ص443 ؛ابن أبي زرع ، المصدر السابق ،ص 151؛الناصري ؛المصدر السابق ج.2،صص171-173.

(50) الحميري محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار ،تحقيق إحسان عباس ،دار العلم ، بيروت ، **1975**، المصدر السابق ، ص469؛ المراكشي ، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت،**1965**،283؛ عنان ، المرجع السابق ، ع.3،ص214.

(51) المراكشي ، نفسه ، ص165-167.

(52) هشام أبو رميلة ؛ المرجع السابق ، صص268،267؛فتحي زغروت ، المرجع السابق ، ص338.

(53) المقري ،نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر ،دط،بيروت **1988**، ج.1،ص443؛ فتحي زغروت ، نفسه ،ص338.

(54) شوقي أبو خليل ، المرجع السابق ، ص63.

(55)شوقي أبو خليل ، المرجع السابق ، ص64.

(56) فتحي زغروت ، المرجع السابق ، ص339.